

الانغلاق الاجتماعي في علاقته والثقافة الهامشية

د. عواطف عطيل لمواليدي د. عماد بن تروش

جامعة الطارف

ملخص:

نحاول من خلال هذا المقال، أن نتناول بالدراسة، مفهومين أساسيين في الحقل السوسيولوجي المعاصر، وهما الانغلاق الاجتماعي والثقافة الهامشية، وأن نبين طبيعة العلاقة بينهما، متوخين في ذلك العوامل المفضية إلى تكوينهما، وكذا تجليات ومؤشرات الانغلاق والتهميش، وما يمكن أن يترتب عن كليهما، وأثر كل ذلك على المجتمع. الكلمات المفتاحية: الانغلاق الاجتماعي، الثقافة، الثقافة الهامشية، الاغتراب.

Abstract :

By this article we study two fundamental concepts of the field of contemporary sociology; which are social closure and marginal culture, and we show the relationship between each other focusing on the main factors of their formation, as well as the indications of closure and marginalization, what may result from the two, and the impact of all this on society .

Key Words : Social Closure, Culture, Marginal Culture, Alienation.

مقدمة:

تختل البحوث السوسيولوجية في المجتمعات الحديثة مكانة مرموقة بين بحوث حقول المعرفة الإنسانية الأخرى، و ذلك بعد انفصال علم الاجتماع عن الفلسفة، و اختصاصه بأدواته و مناهجه، و وضوح الأطر و الحدود و المجالات التي يشتغل فيها، و التي تستهدف تمكين الباحث الاجتماعي من سبر أغوار الظواهر الاجتماعية، و البحث و التنقيب عن الظروف و العوامل التي أدت إليها، مع الحرص على دراستها الدراسة العلمية الموضوعية المخفية لكل تحيز أو تفسيرات شخصية أو قيمية تدفع الباحث إلى انزلاقات معرفية تزييف حقيقة الواقع الاجتماعي المدروس، و تصعب من مهمة الفهم الحقيقي و العميق له، و تقلل من درجة علمية البحث الاجتماعي. و لفهم الظواهر الاجتماعية ها عميقا لا بد من فهم الأسس و المرتكزات التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية و في هذا الصدد يجمع مختلف الباحثين على أن الحياة الاجتماعية برمتها تقوم على شبكة العلاقات الاجتماعية، المتبادلة بين الأفراد والجماعات، داخل المجتمع، وتنوع هذه العلاقات بتنوع البيئة الاجتماعية المنتجة لها، فهناك علاقات قرابة، علاقات صداقة، علاقات جيرة..، وبفعل هذه العلاقات، يدخل المجتمع في عملية التفاعل الاجتماعي Social Interaction، كي يشبع بوساطتها حاجاته المتعددة والمتنوعة، المادية منها والمعنوية. ونحن في هذا السياق نسترشد بأهم النظريات الاجتماعية، التي حددت حاجات الإنسان، والمتمثلة في نظرية أبراهم ماسلو، حيث يظهر هرم الحاجات Hierarchy of Need لديه، أنه رغم اختلاف الحاجات الاجتماعية، من حيث أهميتها من فرد إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، فإن الحاجة إلى تحقيق الذات تتموضع في قمة الهرم، وعلى رأس كل الحاجات النفسية والاجتماعية والبيولوجية، مما يعني أنها حاجة اجتماعية أساسية، وكذلك أولية، ينشدها كل المجتمع، كما أن إشباعها يتوقف على إشباع كل الحاجات الاجتماعية الأخرى، مما يتطلب المشاركة الاجتماعية والاندماج الاجتماعي، في كامل مناشط الحياة الاجتماعية، بتوظيف القدرات والمؤهلات وكذا المواهب، في الوصول إلى المركز المرغوب، لأن

تحقيق الذات وتقديرها، يكون بالنسبة للآخر، ومدى الاعتراف الاجتماعي بها، وهو لذلك رهان اجتماعي، أكثر منه طموح فردي.

ونظراً لتعدد الحياة الاجتماعية، بفعل عوامل التغير الاجتماعي المتعددة، وتداخل مصالح الجماعات تبعاً، تضيق فرص إشباع هذه الحاجة، وغيرها من الحاجات، بحيث لا تكون متاحة وممكنة، أمام كل الأفراد في المجتمع، بشكل عادل ومتساو. فتظهر بذلك انقسامات اجتماعية، تأخذ في مجملها شكل تكتلات أو تحزبات أو طبقات اجتماعية، تجمع بينها عادة الخصائص الاقتصادية والسياسية المشتركة، وبالتالي الأهداف والمصالح المشتركة، وأكثر من ذلك الثقافة المشتركة. وتكون هذه الانقسامات والتشذيمات الاجتماعية، ذات طبيعة صراعية، إذ تحاول بعض الجماعات ذات النفوذ والسلطة، استبعاد الأخرى، للبقاء والاحتفاظ بالتميز الاجتماعي، وبالتالي استمرار مكانتها في المجتمع. فالجماعات التي تشترك من حيث خواصها الاقتصادية، وتتفق من حيث المصالح بينها، تنغلق على نفسها، بغرض استبعاد وإقصاء الجماعات الأخرى، وحتى جماعات النخبة، سواء كانت فكرية أو سياسية أو فنية، فإنها تنغلق على نفسها، حتى لا تمنح فرصة انخراط الجماعات الأخرى فيها، ومن ثم يفرز المجتمع عادة نمطين من التجمعات الاجتماعية، أحدهما فاعل ومتمركز، يستحوذ على الثروة والامتيازات والنفوذ، والآخر مستضعف وهامشي، يعاني الاغتراب والحرمان والإقصاء الاجتماعي. وبناءً على ما تم طرحه، فإننا أردنا مسألة الدلالة السوسيولوجية لكل من الانغلاق الاجتماعي والتهميش الاجتماعي، والكشف عن العوامل المؤدية إلى تكوين الانغلاق الاجتماعي، وتحديد طبيعة العلاقة بين الانغلاق الاجتماعي والثقافة الهامشية.

أولاً: الدلالة السوسيولوجية للمفاهيم

1- الانغلاق الاجتماعي:

ارتبط مفهوم الانغلاق الاجتماعي Social Closure "بكتابات ماكس فيبر M.Weber، ثم أعيد إحيائه على يد عالم الاجتماع البريطاني فرانك بانكين، وقد ظهر هذا المصطلح كبديل للنظريات الماركسية، عن اللامساواة وكيفية ظهورها، وعوامل استمرارها وتحولها"¹، واعتبر فيبر أن الانغلاق هو أحد الوسائل، التي تتحرك من خلالها الطبقات التجارية والمالكة، على متصل من الشرعية، وإعادة إنتاج فرص حياتهم، في اتجاه الطبقة الاجتماعية والمكانة الاجتماعية. بعد ذلك، ذهب أتباع هذا الاتجاه، إلى أن الانغلاق هو أساس كل أشكال اللامساواة الاجتماعية، ويتمظهر ذلك في المكافأة المادية وشرف المكانة، بالإضافة إلى الانتماء السلافي والطائفي، وحتى فيما يتعلق بالمسميات في النظم الشيوعية. حيث تمارس الجماعات المهيمنة إستراتيجية إقصائية، لاستبعاد الجماعات الضعيفة، وبالتالي تهيمشها وإزاحتها، وهو ما يمكن أن نفسّر في ضوءه، أشكال السيطرة والإيديولوجية المشروعة، المرتبطة باللامساواة الاجتماعية. ومن ثم، فإن عمليات الانغلاق الاجتماعي تتضمن التهميش والإقصاء الاجتماعي من جهة، والاحتواء والاندماج الاجتماعي من جهة أخرى.

2- الثقافة الهامشية:

إن مفهوم الثقافة الهامشية مركب من مصطلحين، الثقافة والهامش، وعليه سوف نعرض كل منهما بشكل مستقل عن الآخر، ثم نعرّف المفهوم في شكله الإجمالي.

2-1- الثقافة:

لم يشهد أي مفهوم في الحقل السوسيولوجي، اجتهدا وبجثا وبريقا واختلافا، بالقدر الذي شهدته مفهوم الثقافة، إذ تمثل الثقافة مفهوما مركزيا سوسيولوجيا بامتياز، كيف لا؟ والثقافة هي الخاصية المميزة للمجتمع الإنساني، ومحصلة كل المنتجات الثقافية والفكرية، والخبرات والتجارب الإنسانية المتراكمة، عبر التاريخ. وهي لذلك مفهوم هولي، يندرج ضمن المفاهيم التي يصعب، وضع تعريف محدد ودقيق لها، خاصة إذا علمنا أن ثمة علوم اجتماعية أخرى، تهتم بدراساتها، وتدرجها ضمن انشغالاتها، مثل علم النفس، الأنثروبولوجيا، الفولكلور، القانون، السياسة والاقتصاد. يعرف بعض علماء الاجتماع الثقافة بأنها: "الوحدة الكاملة للسلوك المتعلم، الذي ينتقل من جيل إلى الذي يليه"². يبرز هذا التعريف أن الثقافة في مجملها، سلوك اجتماعي مكتسب، وليس فطري، وهو تعريف عام، إذا ما قورن بتعريف Lorenz.K الذي يعرفها بأنها: "نمط من التقليد (أو العرف) حيث تنتقل الرموز من جيل واحد، إلى الجيل التالي، من خلال التعليم الاجتماعي"³. ويقصد بالتعليم الاجتماعي هنا التنشئة الاجتماعية Socialization، ولكن التعريف الذي صاغه عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد بيرنت تايلور E.B.Tylor يعد أكثر التعريفات شهرة وذيوغا، إلى يومنا هذا، حيث يعرف الثقافة بأنها: "ذلك الكل المركب، الذي يحتوي على المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقانون والعادات والتقاليد، وأي قدرات أخرى، تكتسب بواسطة الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع"⁴. إن ما يميز هذا التعريف هو إلمامه بمحتويات ومشتملات الثقافة، إذ هو وصف لمكوناتها المادية واللامادية، أكثر منه تعريفا معياريا لها.

2-2- الهامش:

لغويا يعني إلى جانب أو على جانب. أما همّش بتشديد العين "فعل" فإنها تعني تصعيد الفعل إلى حد التأثير. كما تعني الإزاحة، الإيذاء. والكتاب يتكون من متن Text وهاشم Margin يعني حاشية الكتاب "وهو جزء خال من الكتابة حول النص في الكتاب المطبوع أو المخطوط، وهو اسم فاعل من همش"⁵، والمتن معول عليه، ومأخوذ به، فهو الأصل والصورة، أما الحاشية فإنها مهمّشة، أي أهما الخارج والإطار⁶. يقال: على هامش الأمر: خارجا عنه أو بمعزل عنه. وفلان يعيش على الهامش: منفرد غير مندمج في المجتمع، مهمل، منعزل. ويعيش على هامش المجتمع: خارج سياق المجتمع⁷. أما اصطلاحا، فإن صفة هامشي نسبة إلى الهامش، تستخدم تحت دلالات متعددة، حيث استخدمت لأول مرة، في أواخر القرن السادس عشر، وكانت تشير في الأصل إلى أي شيء "يكتب أو يطبع على هامش الصفحة أو حاشيتها.. وغير معلوم"⁸، ولم يطل بها الوقت، حتى اتسع استخدامها في حقول البيولوجيا النباتية والحيوانية، وكذلك علم النفس، ثم الاقتصاد في القرن التاسع عشر، للدلالة على كل ما يرتبط "بحافة أو حد أو تخم أو طرف"⁹. وفي مطلع القرن العشرين، أصبح مصطلح الهامشي يستخدم للدلالة على الإنسان الهامشي Marginal Man وهو الذي "ينتمي إلى جماعتين أو أكثر، تختلف مستوياتها الثقافية عن بعضها البعض، كالأجنبي أو المهاجر من القرية إلى المدينة.. الخ، كما يقصد بهذا المصطلح الفرد غير المتكيف مع البيئة، ويطلق على هذه الحالة الهامشية الاجتماعية Social Marginality"¹⁰. كما يستخدم المصطلح، للدلالة على تلك "الجماعة الاجتماعية المعزولة، أو التي لم تتواءم والمجتمع أو الثقافة المهيمنة، وينظر إليها باعتبارها توجد على حافة المجتمع أو الوحدة الاجتماعية، وتنتمي إلى أقلية، غالبا ما تنطوي على مضامين الاستغناء وعدم الانتفاع"¹¹. وفي هذا الصدد يقدم الباحث الاجتماعي "إسماعيل قيرة" وصفا دقيقا للجماعة الهامشية حيث يقول: "... وعلى أية حال تشكل الفئات الهامشية عالما واسعا، يمتد عبر الشرائح المختلفة المربضة في قاع المدينة، و تنتشر في أماكن

متعددة، عالم له علاقاته ولغته و نمطه المعرفي و القيمي، وأفراده خليط من العناصر الرثة المعدمة كليا والمحرومين و الفقراء و ممتهني الأنشطة غير الرسمية و المستخدمين ذوي الأجور المنخفضة، العاطلين عن العمل المتسولين، ساكني الأحياء المتخلفة، الأحداث المتشردين، و كل من يلتقط رزقهم من قلب علاقات الشارع القذرة....¹²

غير أن مصطلح الهامشي لا يزال يكتنفه الكثير من الغموض، لكون الفرد أو الجماعة هامشي أو هامشية بالنسبة لمن؟ وهذا في تقديرنا يرتبط بما يمكن أن يفهم بأنه مركز، فإذا فهم المركز على أنه القوة المادية والاقتصادية، فإن الفقراء يعتبرون هامشيون، وإذا فهم المركز على أنه المكتسبات العلمية، فإن الأميون هم هامشيون، أو بالأحرى يتحدد الهامش في عدم الاندماج في نظام معين، لذلك تعتبر الجماعات التي لا تندمج في النظام السياسي مثلاً هامشية بالنسبة له. وعليه لا يمكن وضع معايير وأبعاد محددة، نقيس من خلالها الهامش والمركز، إذ هما يختلفان ونسبيان.

2-3- الثقافة الهامشية:

تعرف الثقافة الهامشية Marginal Culture بأنها "الثقافة المتاخمة لثقافة أخرى، وتتصف عامة بأنها أفقر منها، من حيث الموارد التكنية والثقافة العامة، وبعبارة أخرى هي الثقافة التي "تقع على تخوم حضارية متقدمة"¹³. ويفهم من ذلك أنها الثقافة التي تتعايش داخل ثقافة مهيمنة، وتحاول أن تندمج معها، وهي تختلف عن الثقافة الفرعية Subculture التي تعني نمط متفرع عن الثقافة الكبرى أو الثقافة الكلية للمجتمع، وهي "تستعير منها رموزها وقيمها ومعتقداتها، غير أنها كثيراً ما تعرضها للتشويه، أو المبالغة، أو قد تقلبها رأساً على عقب"¹⁴. وتظهر الثقافة الفرعية عادة، داخل المجتمع الذي يتميز بدرجة عالية من التباين، تماماً كالثقافة الهامشية.

ولم يكن هذا المفهوم عندما وضعه راتزل Ratzel في عام 1891¹⁵ سوى دلالة جغرافية بحثية، ولكنه اكتسب من خلال التفسيرات التطورية، وكذلك في نظر بعض المؤرخين المعاصرين اصطلاح الثقافة المتخلفة. إلا أن بعض الإثنولوجيين، نجدهم يفضلون استخدام المصطلح، بالمدلول الأول الذي قدمه راتزل، ومنهم هيرسكوفيتس Herskovits الذي يعرف الثقافة الهامشية بأنها: "الثقافة التي توجد فيها عناصر ثقافية من منطقة مجاورة". ويضيف أنه "بينما تشبه هذه الثقافات، ثقافات الشعوب التي يعد أسلوب حياتها طرازياً أو مركزياً، فإنها تختلف عنها بدرجات، تتفاوت تبعا لبعد بيئتها الطبيعية، عن البيئة الطبيعية للقبائل المركزية"¹⁵. كما استخدم مصطلح الثقافة الهامشية، للدلالة على الثقافات التي ظلت على بدائيتها أي القديمة، والتي تعد سماتها الثقافية هامشية، بالمقارنة والثقافات الأكثر تحضراً.

ولكن ضمن هذه الدراسة، سوف نستخدم المفهوم، بحسب التعريف الذي صاغه علماء الاجتماع، باعتبار الثقافة الهامشية "تلك الثقافة الأفقر في مكوناتها التكيفية، بالمقارنة والثقافة الكبرى، التي تتموقع على تخومها".

3- الاغتراب:

إن شعور الجماعة الهامشية، بالحرمان الاجتماعي والاقتصادي، يفضي من دون شك، إلى بروز الاغتراب Alienation بين أفرادها، والذي يعرف بأنه نقيض الانتماء، وهو يشير إلى "حالة الانفصال بين الفرد والموضوع، وبين الفرد والأشياء المحيطة به، وبين الفرد والمجتمع"¹⁶. لذلك، يعرفه انجلش English بأنه "فقد أو نقص العلاقة أو الصلة، متى وأين ما تكون تلك العلاقة أو الصلة متوقعة، وهي حالة يكون فيها الأفراد والمواقف الشائعة، غريبة عن الفرد"¹⁷.

ومصطلح الاغتراب قديم، ظهر منذ وقت مبكر، في الفلسفة والدين. حيث "استعار كارل ماركس K.Marx مفهوم الاغتراب من الفلسفة الهيكلية، وأدخله في علم الاجتماع، واستعمل هذا المفهوم من قبل العديد من الكتاب، الذين أعطوه

دلالات كثيرة¹⁸. وشاع استخدامه في المجالات: الاجتماعية، السياسية، المهنية، المذهبية، التربوية، التعليمية، كما شاع استخدامه كذلك، في مجال الصحة النفسية. لذلك، يعرف الاغتراب أيضا بأنه "الحالة النفس - اجتماعية المسيطرة بشكل تام على الفرد، بحيث تحوله إلى شخص غريب وبعيد، عن بعض النواحي الاجتماعية في واقعه"¹⁹.

وحسب ميلفن سيمان M.Seman فإن الاغتراب، يتشكل من خمسة طرق، نورها على التوالي:²⁰

• انعدام القوة Powerlessness ويعني شعور الفرد، بأنه ليست لديه القدرة على التأثير، في المواقف الاجتماعية، المحيطة به.

• فقدان المعنى Meaninglessness الذي يتضمن عجز الفرد عن الوصول إلى قرار ما ينبغي أن يتخذه، أو إدراك ما، يجب أن يعتقده موجهها لسلوكه.

• فقدان المعايير وهو لجوء الفرد، إلى استخدام أساليب غير مشروعة، وغير موافق عليها اجتماعيا، لتحقيق أهدافه.

• العزلة Esolation وتعني انفصال الفرد عن تيار الثقافة السائدة، وتبني مبادئ أو مفاهيم مخالفة، مما يجعله غير قادر، على مسايرة الأوضاع القائمة.

• غربة الذات Self-estrangement وهي إدراك الفرد بأنه أصبح مغتربا، حتى عن ذاته.

ثانياً: عوامل نشوء الانغلاق الاجتماعي

يلاحظ على معظم التراث السوسيولوجي، المنتج حول ظاهرة التهميش والإقصاء الاجتماعيين، تركيزه على الهامشية كنتيجة، فيما يهمل إلى حد ما، بحث عوامل الانغلاق الاجتماعي، بدليل قلة الدراسات المنجزة حول ظاهرة الانغلاق الاجتماعي، لاسيما العربية منها، حيث يتم تناولها فقط، من خلال ظاهرة أخرى تتمخض عنها، تعرف بالاستبعاد الاجتماعي، بالرغم من أن الأخيرة، لا تنشأ من فراغ أو عدم. علما أن مفاهيم اللامساواة الاجتماعية، والاستغلال والظلم الاجتماعي، بما فيها الانغلاق الاجتماعي، قد برزت وتبلورت تاريخيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، تزامنا والثورة الصناعية، وارتبطت تحديدا بالنظام الرأسمالي، الذي عمل على تكوين الفوارق الطبقيّة، والتميزات الاجتماعية، في المجتمع الصناعي، حيث الأغنياء يزدادون ثراء، فيما يزداد الفقراء فقرا وعوزا. فظهر بذلك مصطلح الطبقة الاجتماعية Social Class وينظر إليها عادة على أنها "تتكون من مجموعة الأفراد الذين يتساوون تقريبا في الدخل والثروة والمكانة الاجتماعية، وكلمة طبقة في معنى أكثر تحديدا تدل على من يجمعهم وضع مشترك، بالنسبة للكيان الاقتصادي، مثل طبقة العمال أو طبقة البورجوازية أو طبقة الرأسمالية، وفي الاصطلاح الماركسي، تعبر الطبقة عن الأشكال الأساسية للعلاقات ذات الصلة بوسائل الإنتاج"²¹. وبهذا فإن الطبقات الاجتماعية تنقسم إلى الطبقة الرأسمالية وهي المالكة لوسائل الإنتاج والمتحكممة فيها، أما الطبقة الكادحة فإنها لا تملك إلا قوة عملها. ولكن ماكس فيبر M.Weber يفرق بين الطبقة والتدخل الوثيق بين عناصرها، وهو ما يبرز كذلك في استخدام بيار بورديو P.Bourdieu لمصطلح الطبقة الاجتماعية، والتي تتأسس على التمايزات الثقافية، بدل الفوارق الاقتصادية.

فالانقسامات والتكتلات الاجتماعية، داخل المجتمعات الرأسمالية المعاصرة، بما فيها المجتمعات النامية، تظهر تداخلا كبيرا بين ما هو ثقافي واقتصادي وسياسي، الأمر الذي يدفعنا إلى تجاوز استخدام مصطلح الطبقة الاجتماعية، واستبداله

بالجماعة الاجتماعية، كونها لا تتشكل وفق محددات اقتصادية أو اجتماعية صرفة، بقدر ما تتداخل هذه المحددات في تكوينها، وهو المصطلح الذي نراه الأكثر مواءمة، والواقع الاجتماعي المتغير.

ويكون من المهم أن ندرك، حقيقة الجماعات الاجتماعية، إذ هي ليست مجرد تجمعات بشرية اعتباطية فحسب، وإنما هي نسج علائقي يجمع بين أعضائها، ويفضله تؤسس داخلها ما يعرف بثقافة المجموعة، بحيث تشترك وتتبادل وتقبل المعايير والقيم والمبادئ نفسها، وهو ما يزيد من قوتها وتماسكها واستمراريتها، وحتى مقاومتها للآخر المختلف عنها، إما ثقافيا أو علميا أو إيديولوجيا أو عرقيا أو دينيا أو ماديا. وحتى تحتفظ الجماعة بقوتها ومركزها، لامتلاكها رأسمال معين في حقل خصوصي، ليكن الحقل الاقتصادي مثلا، فإنها تترع إلى الانغلاق على نفسها، من خلال تبني إستراتيجية الانغلاق، ضد من لا يمتلكون أو يشتركون وأعضائها في الثروة والنفوذ والمكانة، بحيث تقتضي مصلحة هذه الجماعة، سواء كانت طبقة اجتماعية أو منظمة أو سلطة، استبعادهم بشكل قسري.

وتشتغل إستراتيجية الانغلاق هذه، وفق آليتين متلازمتين هما المنع والاحتواء، وذلك في ضوء المعايير التي تسعى الجماعة المهيمنة إلى تبريرها، حيث تقوم بسد المسالك والفرص، أمام الجماعات الأخرى، بغرض منعها من الاندماج الكامل في النظام (الاقتصادي، السياسي، الثقافي..). فتكون غالبا فرصهم في العمل أو الإنتاج والاستهلاك والرفاهة ضئيلة. وتضمن الجماعة مقابل ذلك، احتواء أعضائها، وبالتالي اندماجهم في النظام، واستفادتهم من كل الامتيازات والمكافآت. ووفق هاته الإستراتيجية، فإنهم يعيدون إنتاج طبقتهم أو فئتهم الاجتماعية، مع الاحتفاظ بالفرص والمكانة نفسها. وهكذا، تتموقع جماعات معينة في مركز النشاطات الاجتماعية، وتكون مشاركتهم فاعلة وإيجابية في المجتمع، فيما تلفظ جماعات أخرى بعيدا عنه، وتقصى من المشاركة في معظم نشاطاته، وبذلك تجدد نفسها على هامش الحياة الاجتماعية.

فالانغلاق الاجتماعي والحال هذه، هو نوع من الاحتكار الاجتماعي، الذي يؤمن إعادة إنتاج الجماعة الاجتماعية، وفق الظروف والعوامل والمعايير نفسها، دون الدخول في حقل المنافسة مع الآخر، ومن ثم يتم الاستحواذ على أرفع المناصب والمراكز الاجتماعية، بشكل آلي ودون تكبد أي عناء. هذا، ويؤدي الانغلاق من الناحية النفسية وظيفة دفاعية، عن مصالح الجماعة، وذلك لتجنب الآخر، والتميز عنه، والاحتفاظ بالمكانة الاجتماعية، لأن الانفتاح في هذه الحالة، يعني قبول الآخر، والتكافؤ معه في الفرص والإمكانات، ومن ثم تصبح المنافسة ممكنة، ويكون احتمال فقدان أو خسارة المركز واردا.

ثالثا: عوامل تكوين الثقافة الهامشية

يحول الانغلاق الاجتماعي، دون إشباع الجماعات المستضعفة، حاجاتها الاجتماعية، كالإسكان والعمل والزواج.. والمشاركة في الحياة الاجتماعية، ومن ثم فإن هذه الجماعات تجد نفسها على هامش، وبالتالي لا دور لديها ولا أهمية لها في المجتمع، وأنها مستبعدة ومقصاة تماما، من عملية التنمية فيه. فالفرص المسدودة للارتقاء بالذات وتحقيق احترامها، تضيق مجالات الاختيار لدى الجماعات الهامشية، بل وتنعدم في كثير من الأحيان، مما يرغم أفرادها على قبول أوضاعهم المتردية، لعدم وجود البديل، وعدم قدرتهم على التغيير أو التأثير، وهو ما يتجلى في الانسحاب الطوعي لشريحة عريضة لهؤلاء، من المشاركة الاجتماعية والسياسية، بحيث يسود الاغتراب بينهم، ويضعف شعورهم بالانتماء إلى مجتمعهم، وتضعف مواطنتهم تبعا. ويكون الهامشيون بذلك جماعات اجتماعية، تشترك زيادة على الظروف والأوضاع، في الرؤى والتمثيلات والتفسيرات والمعتقدات نفسها، منتجة ما يعرف بالثقافة الهامشية.

وطالما أن الثقافة الهامشية، تنشئ على تخوم الثقافة الكبرى للمجتمع، فإنها تحاول أن تندمج فيها، وأن تماثلها، فتتضمن بنيتها، قيما و معايير وأفكارا ومبادئ وعادات..، اكتسبت وتشكلت مع الزمن، في ظل الظروف الصعبة والمتردة، التي تعيشها الجماعة الهامشية. وعلى غرار الجماعات المركزية أو المحورية المهيمنة، تعيد الجماعات الهامشية إنتاج ثقافتها، ما دامت العوامل المتحركة في ظهورها لم يمسها التغيير، وبالتالي فإنها تظل متموضعة، على هامش الأنشطة في المجتمع. وفي هذا السياق يحضرنا مؤشر التنمية البشرية، الذي يعتبر أكثر الأدوات أهمية في قياس رفاهية الإنسان، ضمن نهج التنمية البشرية، منذ أزيد من 35 سنة، حيث أصبح بديلا عن مؤشر إجمالي الناتج المحلي، الذي يتسم بكونه اقتصادي بحت، "ويتتبع هذا المؤشر تحسينات في جوانب أساسية من حياة الناس، ملما بالتقدم في ثلاث قدرات أساسية للإنسان: أن يعيش حياة طويلة وصحية، ويكون متعلما وذا معرفة، ويتمتع بمستوى معيشي لائق"²².

غير أن الواقع الاجتماعي للعديد من المجتمعات في العالم، وبخاصة المجتمعات النامية، ومن بينها المجتمعات العربية، وزيادة على تدهور مستوياتها الصحية والتعليمية والمعيشية، فإنها تواجه مشكلات أخرى، بل تحديات كبرى، تمخضت عن عدم تكافؤ الفرص، والانغلاق الاجتماعي، وبالتالي اللامساواة الاجتماعية، التي أفرزت جماعات قوية مسيطرة ذات نفوذ، وأخرى قابضة تحت وطأة الفقر والبؤس. لاحظ الجدول الموالي.

الجدول رقم (1) يبرز أهم التحديات التي تواجه بعض المجتمعات العربية اليوم (%)

الوضع الاقتصادي (الفقر، البطالة، ارتفاع الأسعار)	الفساد المالي والإداري	تعزيز (تقوية) الديمقراطية	تحقيق الاستقرار والأمن الداخلي	أخرى	
76.9	14.9	2.7	3.3	2.2	الجزائر
87.6	6.5	1.4	1.3	3.1	مصر
52.5	32.5	3.5	9.7	1.7	العراق
81.0	14.0	1.1	0.7	3.3	الأردن
56.5	25.3	9.4	0.9	8.0	الكويت
60.6	24.4	3.5	7.1	4.3	لبنان
23.1	32.3	2.3	0.7	41.6	ليبيا

المصدر: تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2016، الشباب في المنطقة العربية: آفاق التنمية الإنسانية في عالم متغير، صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - المكتب الإقليمي للدول العربية، ص 22. نقلا عن: Arab Barometer 2014 (Wave III)

إن أساليب البيروقراطية والحسوبة والخاباء والرشوة وتجاوز سلطة القانون..، كلها تشتغل لصالح الجماعات المحورية في المجتمع، حتى تظل محافظة على مركزها، وتعيد إنتاج نفسها، وفقا لذات العوامل والظروف والمعايير، وما على الجماعات الهامشية والمستضعفة، إلا أن تقبل بوضعها، لانعدام الخيارات والبدائل أمامها. وعليه، تتكيف هذه الجماعات وظروفها المزرية، مكونة ثقافتها التي يصطلح على تسميتها بالثقافة المتخلفة أو ثقافة الفقر أيضا.

فأمام غلاء المعيشة، وتدني الأجور، والفجوة العميقة بين الأثرياء والفقراء، وانسداد الفرص في الارتقاء وتحسين المستوى المعيشي، وبغياب العدالة الاجتماعية، يتعمق الشعور الجمعي بالكراهية والمقت، ويعمل الاغتراب على انعزالهم عن واقعهم الاجتماعي، باحثين عن واقع آخر يجمعهم، ويشبع حاجتهم إلى تحقيق الذات واحترامها وتقديرها. وإن كانت التنمية لا تعني مجرد زيادة الدخل القومي، بل كما ذهب سيرز Seers "إن التنمية ينبغي أن تركز على مقابلة حاجات الأفراد

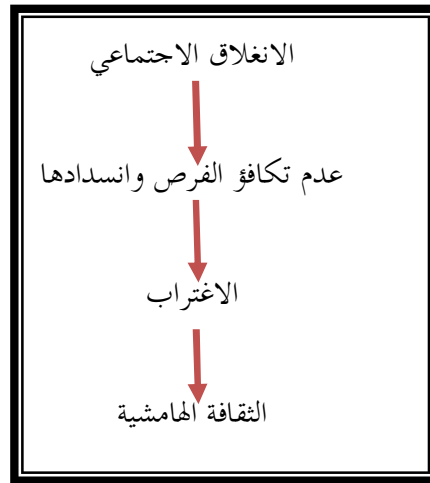
الأساسية، كحقهم في الحصول على غذاء كاف، وفرص عمل، ومسكن ملائم، كما يجب أن تهتم التنمية بتقليل التباين، في مستويات الدخل²³.

فالثقافة الهامشية تنطوي والحال هذه، على صراع داخلي، يعبر عن نفسه، في صور "الكتابة على الجدران، ولوحات المرور، والمراحيض، كما تنتج هذه الفئات الكم الأكبر من السخرية، في شكل نكات وتعليقات ساخرة على السياسيين، ورجال الأعمال، والأثرياء"²⁴. ناهيك عن أعمال التخريب، التي تطال عادة المنشآت الحكومية.

رابعاً: طبيعة العلاقة بين الانغلاق الاجتماعي والثقافة الهامشية

يدفع الانغلاق الاجتماعي، إلى تكوين جماعات هامشية، تتموقع خارج مركز المجتمع، دون أن تكون لها فرص متكافئة والجماعات المهيمنة، في إشباع حاجاتها الضرورية: كالسكن والعمل والرفاهية. ومادامت الثقافة نتاج طبيعي لأي جماعة اجتماعية، فإن الجماعة الهامشية والحال هذه، تقوم بتطوير أساليب وطرائق ووسائل لإشباع حاجاتها، بحسب ما توفره الظروف، وتتيحه الموارد الشحيحة. فتتجه الجماعة الهامشية عادة، إلى الادخار والتخشف، كما تتسم بتخوفها من المستقبل، ونظرتها الضيقة والتشاؤمية تجاه كل مشروعات التنمية، وتأنى بنفسها عن الخوض في موضوعات السياسة، وكأها غير معنية بذلك، وهذا راجع إلى عدم قدرتها في التأثير، على أي قرار سياسي.

حقيقة، إن هذه الوضعية المؤلمة لهؤلاء، وبناء على ما تم عرضه، تفصح عن طبيعة العلاقة بين الانغلاق الاجتماعي والثقافة الهامشية، التي نجدها سببية، كون الانغلاق الاجتماعي يمثل متغيراً مستقلاً، والثقافة الهامشية تمثل متغيراً تابعاً، بمعنى أن الثقافة الهامشية، لا تنشأ عن الثقاف أو الانتشار الثقافي بين المجتمعات، وليست اتجاهها اجتماعياً أو اختياراً، بقدر ما هي نتيجة حتمية، للقهر المترتب عن الانغلاق الاجتماعي، بحيث يمثل الاغتراب أهم مراحل تكوينها. وبذلك، يمكن تمثيل هذه العلاقة على النحو التالي.



الشكل رقم (1) يمثل العلاقة السببية بين الانغلاق الاجتماعي والثقافة الهامشية

خامساً: انعكاسات الانغلاق والتهemis على المجتمع

يشير مصطلح الانغلاق الاجتماعي ضمناً، إلى عدم التفاعل الاجتماعي والآخر، وكأن بالجماعات المنغلقة تنشئ سياجا حولها، تمنع من خلاله انخراط أو اندماج أي جماعات أخرى، لا تنطوي عليها معاييرها ومواصفاتها وشروطها، ومن ثم تعيد الجماعات المنغلقة، إنتاج نفسها بشكل تواتري، عبر التاريخ. فيما تتموضع الجماعات المستبعدة، خارج النسق

الاجتماعي، لتجد نفسها على الهامش. وهنا يطرح التساؤل: ما هي انعكاسات الانغلاق الاجتماعي والتهميش على المجتمع؟

إن الجماعات الهامشية، أيا كان عامل تهميشها اقتصاديا أو رمزيا ثقافيا، تأخذ منحنيين اثنين تغذيها الثقافة الهامشية، بكل ما تحتويه من سلوك انسحابي وشعور اغترابي. المنحى الأول هو الاستسلام والخضوع، بحيث يحاول الأفراد التأقلم والتكيف ووضعتهم وظروفهم المزرية، لإحساسهم بضعفهم وعجزهم عن تغييرها. أما المنحى الثاني هو التمرد والثورة، الذي يأخذ بدوره منحنيين آخرين، إما عنفا ضد الذات ويتمظهر في أشكال السلوك المنحرف، مثل الإدمان، الدعارة، الهجرة غير الشرعية..، لإشباع حاجة تحقيق الذات، ما دامت فرص تحقيقها بالطرق السليمة، مسدودة أو غير متاحة، أو قد ينته الوضع، إلى السلوك الإجرامي مثل الانتحار. وإما عنفا ضد الآخر ويتمظهر في أشكال التطرف والإجرام وتكوين الجماعات الإرهابية. وبذلك، تنشئ هذه الجماعات الثائرة والمتمردة على السلطة، انغلاقا آخر ضد الجماعات المركزية أو المحورية، التي تتبنى هي نفسها أسلوب الانغلاق الاجتماعي، وهكذا تؤسس الجماعات المتطرفة والإرهابية تنظيماتها، ولا تقبل داخلها إلا أولئك الذين يشتركون وثقافتها.

فقد خرجت حشود الهامشيين "يهتفون في ثورات تونس ومصر واليمن، مطالبين بخبز وحرية وكرامة، وبالتالي ليس الأمر سوء الوضع المعيشي، بل هو الشعور بالقهر وانسحاق مبدأ المواطنة، الذي أدى إلى غياب العدالة الاجتماعية"²⁵.
خاتمة:

مما تقدم عرضه، نستخلص أن ظاهرة الانغلاق الاجتماعي، وإن كانت صحية في المجتمعات الرأسمالية، إلا أن الثقافة الهامشية التي تتولد عنها، تغذي العديد من المشكلات النفس - اجتماعية والاقتصادية أيضا، حيث تبدأ بتلك الانقسامات والتشردات الاجتماعية المتصارعة، بحيث تقصي القوية منها الضعيفة، بهدف الاحتفاظ بامتيازاتها ونفوذها ومصالحها، وبالتالي مركزها، لترجح جماعات أخرى، وتركنها على الهامش، وتحول بينها وبين المشاركة الاجتماعية الإيجابية والفعالة، في مختلف مجالات الإنتاج الاجتماعي، ومن ثم فإن الثورات والتمرد والعنف السياسي، هي مخرجات للثقافة الهامشية، التي تعمقت بالاعترا، إذ تعبر عن صور القهر والعجز، المترتبين عن الانغلاق الاجتماعي، بأساليب متعددة، وبهذا ندرك أن طبيعة العلاقة بين الانغلاق الاجتماعي والثقافة الهامشية، هي علاقة سببية، حيث يبرز الانغلاق الاجتماعي، كأحد أهم العوامل المؤدية إلى تكوين الثقافة الهامشية، وما تفرزه من مشكلات اجتماعية.

قائمة المراجع:

- 1- إبراهيم مذكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.
- 2- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (الإنجليزي - فرنسي - عربي)، مكتبة لبنان - بيروت، ط 2، 1982.
- 3- إسماعيل قيرة، أي مستقبل للفقراء في البلدان العربية. مؤلفات مخبر الإنسان و المدينة، جامعة منتوري، قسنطينة، طبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، بدون سنة.
- 4- الثقافة الهامشية [http:// www.aranthropos.com](http://www.aranthropos.com)
- 5- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2016، الشباب في المنطقة العربية: آفاق التنمية الإنسانية في عالم متغير، صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - المكتب الإقليمي للدول العربية.
- 6- جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، ترجمة: أحمد عبد الله زايد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، ط1، 2000.
- 7- سلمى بالحاج مبروك، الآخر الهامشي <http://www.maaber.org>
- 8- سمير إبراهيم حسن، الثقافة والمجتمع، دار الفكر - دمشق، ط1، 2007.

- 9- طارق السيد، علم اجتماع التنمية، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية، 2007.
- 10- طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة - معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العالمية للترجمة- بيروت، ط1، 2010.
- 11- عز الدين الأصبحي، المواطنة والتنمية كأساس للعدالة الاجتماعية، بحوث ومناقشات الندوة الدولية حول التنمية والديمقراطية وتطوير النظام الإقليمي العربي، جامعة الدول العربية، 10/09 مايو 2013، ط1، ديسمبر 2013.
- 12- غادة الحلايقة، مفهوم الاغتراب <http://www.mawdoo3.com>
- 13- قاموس المعجم الوسيط <http://www.almaany.com>
- 14- متعب مناف، التهميش الاجتماعي سوسيولوجيا التابعية والمحاصرة <http://www.althakafaaljadida.com>
- 15- مجدي أحمد محمد عبد الله، السلوك الاجتماعي و دينامياته، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، 2005.
- 16- محمد أحمد بيومي، المجتمع والثقافة والشخصية (دراسة في علم الاجتماع الثقافي)، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، 1986.
- 17- مصلح الصالح، الشامل قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية إنجليزي- عربي (مع تعريف وشرح المصطلحات)، دار عالم الكتب- الرياض، ط1، 1999.
- 18- معجم المعاني الجامع <http://www.almaany.com>